المحاضرة الرابعة:

مدخل إلى اتجاهات الشعر الجزائري

(المؤثرات الأساسية في اتجاهات الشعر الجزائري الحديث)

أولا: الاتجاه التقليدي المحافظ:

يتجاذب الشعر الجزائري الحديث نزعتان رئيسيتان: نزعة المحافظة والتقليد، ونزعة التطوير والتجديد، غير أن النزعة الأولى كان لها في الأوساط الأدبية الجزائرية معتنقون أكثر، ووجدت من الشعراء والنقاد استجابة تلقائية أكبر، فيما ظلت فيه النزعة التجديدية منحصرة لدى بعض النقاد والشعراء القلائل المتأثرين بالحركة الرومانسية العربية والفرنسية، وظل الاتجاهان يسيران جنبا إلى جنب إلى حين ظهور الاتجاه الجديد المتمثل في محاولات الشعر الحر في بداية الخمسينيات ولكن تيار المحافظة والتقليد ظل قويا وهذا يعود لعدة أسباب وعوامل، يوجزها الدكتور "محمد ناصر" في العناصر التالية:

1-الثقافة السلفية:

المقصود بها الثقافة السلفية المحافظة التي توجهها الحركة الإصلاحية، حيث يرتبط فيها التعليم بالوسط الديني (الزوايا، المساجد، الكتاتيب القرآنية). أما المواد التي كانت تُدَرَّس بها فكانت تعتمد على حفظ القرآن الكريم حفظا كميا لا كيفيا. فكان فهم الشعر لا يتم إلا في ضوء هذه النظرة الدينية التي تهتم بالمضمون لا بالشكل. هذه العناية بالقرآن تركت بصمتها في أساليب الشعراء، فجاءت متينة قوية جزلة، ولا

ينحصر الأمر في تضمين القرآن والاقتباس منه، بل أصبح مصدرا للصورة الشعرية والخيال لدى شعراء أمثال "محمد العيد" و"مفدي زكريا".

2- التعلق بالأدب العربي القديم:

ينبع هذا التعلق من أمرين: أولهما عناية الحركة الإصلاحية بالتراث، المرتبطة بالنزعة السلفية التي ترى أن السبيل الوحيد لرقي اللغة العربية هو ربطها بماضيها الشعري المتين. أما الأمر الثاني فهو انتماء أصحاب هذه الحركة إلى الثقافة العربية دون الانفتاح على الثقافة الغربية.

3- التأثر بمدرسة الإحياء العربية:

كان إعجاب أدباء الحركة الإصلاحية لا يتوقف عند حدود القراءة والمتابعة، ولكنه تجاوزها إلى التشرب والتقليد، فكانوا يحفظون قصائد شوقي وحافظ والرصافي، ويدرسونها وينسجون القصائد على منوالها، ويتضح هذا الإعجاب في معارضة قصائد شعراء الإحياء والاقتباس منهم.

4- المفهوم التقليدي المحافظ للشعر:

ظل شعراء الاتجاه التقليدي مرتبطين بالمفاهيم التي وضعها النقاد العرب القدامى للشعر. من أمثال قدامى بن جعفر، وابن قتيبة والآمدي وابن رشيق... لقد أعاد شعراء ونقاد الجزائر صياغة نفس المفهوم للشعر في تصوراتهم، فهو ذلك الشعر الموزون المقفى، ولم يضيفوا عليه أي جديد. وللشعر في اعتقادهم غاية إصلاحية أخلاقية، لذلك كان الشعر عندهم بمثابة مرآة للمجتمع. وهذه النظرة جاءت استجابة للواقع الذي يعانيه المجتمع الجزائري آنذاك.

ثانيا: الاتجاه الوجداني الرومنسي:

1-المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

نشأت الحركة الرومنسية كرد فعل على الكلاسيكية، فهي ترى الإبداع عملية خلق ذاتي نابع من الإنسان وليس من الطبيعة، وليس قائما على الاتباع والتقليد، فالإنسان هو مصدر القيم ولذلك نادت الرومنسية بالحرية أثناء عملية الخلق. وإذا كان العقل والمنطق أساس الكلاسيكية فإن النفس والخيال هو أساس الرومنسية. وإذا كانت غاية الكلاسيكية أخلاقية اجتماعية، فإن غرض الرومانسية الوحيد هو الحقيقة الفردية أي طبيعة الكاتب الخاصة. ظهر الاتجاه الرومانسي في الشعر الجزائري بعد ح ع أ، جراء الحزن والألم الذي فرضه الاستعمار، وقد زادت حدة اليأس من 1943 إلى 1954، لذلك فالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لها دور في الاتجاه نحو الرومانسية.

2-المؤثرات الثقافية: نابعة من مصدرين أساسيين:

التيار العربي: الوافد من المشرق من خلال متابعة الحركات التجديدية، مثل جماعة الديوان، شعراء المهجر، أبولو، وشعراء أمثال مطران، جبران، الشابي من تونس، ولعل جماعة المهجر كانت أكثر تأثيرا في شعراء الجزائر من الحركات الأخرى. وكانت مجلة الشهاب مصدرا للاطلاع على الشعر المهجري والتعريف به.

التيار الغربي: الوافد من الثقافة الغربية عن طريق الاطلاع المباشر على أعمال الرومانسيين أو عبر الترجمة، وهو اتجاه قليل التأثير في شعراء الجزائر،

3-المؤثرات البيئية والنفسية:

لعبت البيئة الصحراوية لشعراء الجزائر دورا بارزا في تفجير روح التمرد والتجديد. بالإضافة إلى الطبيعة الذاتية للشعراء من إحساس مرهف ونفس منفعلة، فكان الهروب من قسوة الواقع إلى رحمة الخيال ورحابته. وهذا ما يؤكده كثرة الشعراء الجزائريين من الصحراء الجزائرية (مفدي زكريا، محمد العيد، أحمد سحنون، محمد الأخضر السائحي، أبو القاسم سعد الله، أو القاسم خمار...).

4-المفهوم الوجداني الرومانسي للشعر:

قدم بعض الشعراء الجزائريون خاصة رمضان حمود تصورهم للشعر على أساس رومانسي، فهو يشترط الصدق الفني في التجربة ومعنى ذلك، أن ينصب الاهتمام إبان التجربة على العاطفة التي يعتبرها أول عنصر في العمل الشعري يتوقف عليه نجاح الشعر أو إخفاقه، لذلك فهو طالما حذر الناشئ من أن يتقدم إلى مهنة الكتابة بزاد النحو والصرف والعروض والبلاغة وحدها. فإن ذلك كله لا نفعاً ما لم يسعفه من نفسه وازع قوي نحو التجربة الشعرية، لأن الشعر في تصور رمضان ... ليس بضاعة أو صناعة كما يذهب إلى ذلك المحافظون التقليديون ولكنه الهام وجداني ووحي الضمير. فإن الأدب الذي لا يصدر عن نفس حساسة في نفحاتها لا يتسرب إلى أعماق النفوس الحية، بل لا يخلد طويلاً ولا يلبث أن يقضي عليه النسيان يجديه والإهمال...

ثالثا: الاتجاه الجديد (الشعر الحر)

المرحلة الأولى: (1955-1962): بدأ الشعر الحر مع قصيدة طريقي لأبي القاسم سعد الله سنة 1955، وقد سبقتها عدة تجارب مثل تجربة رمضان حمود في 1928، ويعود السبب في ظهور هذا الاتجاه إلى تمرد الشعراء الشباب على الجمود في مختلف نواحي الحياة السياسية، الدينية، الاقتصادية... خصوصا مع بداية الثورة التحريرية، كما أسهمت دوافع نفسية في كتابة هذا اللون الجديد، ولذلك يشترك كتاب الشعر الرومانسي مع الشعر الحر في كون النفس مصدر هذا الدفق الشعري. ناهيك عن التأثر بالشعر الجديد القادم من المشرق ومن الغرب.

المرحلة الثانية: (1962-1968): عرفت جمود في النشاط الفكري عقب الاستقلال، لأسباب متعددة، انعدام الخصم بخروج المستعمر، انصراف الشعراء إلى الدراسة ومهن أخرى، انعدام الجمهور القارئ...

المرحلة الثالثة: (1968-1975): استعادت الساحة الشعرية في الجزائر حركيتها متأثرة بالتحولات السياسية والاقتصادية التي عرفتها البلاد، ومع ظهور الصحف الثقافية، والنوادي، والشباب الطموح، فبرزت أصوات جديدة في كتابة الشعر الحر.

مراجع المحاضرة:

1- أبو القاسم سعد الله: في الأدب الجزائري الحديث.
2-محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، (د.ت).